ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """"دار الطالب ""بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

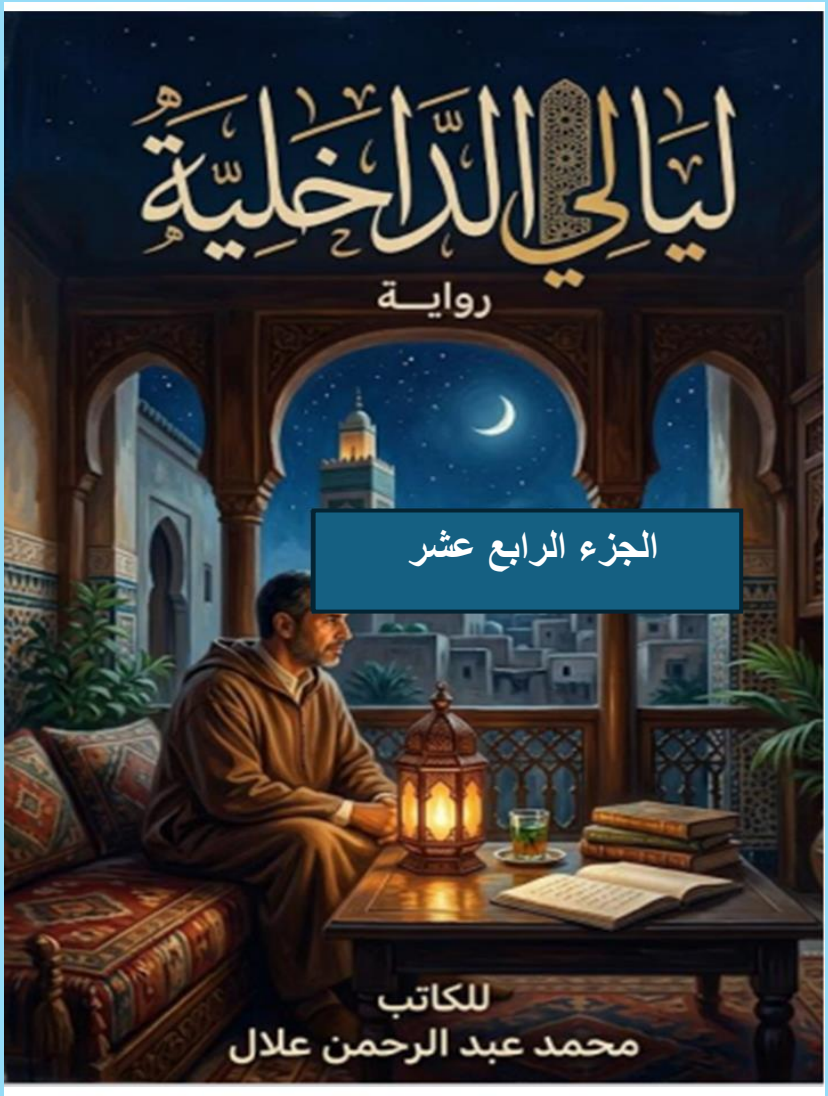

كان معلمه بالثانوية منذ أول عام نزل فيه بهذه المدينة -ذات النخيل السامق والظلال المنعشة والسواقي الممتدة والمياه العذبة - طالبا .اليوم سيلقاه من جديد أستاذا له في مستوى ""لبغوفي""كما دأب الناس على تسميته آنذاك .لقد سره كثيرا أن يتتلمذ على يديه وقد خبر من قبل جده وانصرافه الى ما ينفع الطلاب ويرفع من مستواهم المعرفي حول التواريخ والمواطن الغريبة في قسم الملاحظة ،كان تيمح على موعد. مع دروس التاريخ ، تاريخ الأمم القديمة حضارة بلاد الرافدين .حضارة الفراعنة. في مصر .حضارة اليونان وغيرها من البلدان التي سبقت ميلاد المسيح .كان تيمح يجد صعوبه في فهم هذه الدروس مع معلمه "سي عمارة""" أول الأمر ،فطريقة تقديمه لها كانت مختلفة عن تلك التي كان ينتهجها """"سي ميموني""""" في قسم الشهادة قبل عام من اليوم ...كان """ سي عمارة""" يعتمد الاستقراء والاستنباط في تعامله مع ما يقدم ، كان ذلك جديدا على تيمح و ثقافته في الموضوع ضعيفة. لم تكن بمدينته مكتبة فيقرأ كتبها فتثقفه .ما كان التلفاز موجودا فيتعلم من برامجه

ويعلم ما يدور من حوله أو في البلاد البعيدة .كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء الخميس من شهر دجمبر. دلفت الشمس تفتُر أشعتها و تسحب خيوطها المذهبة نحو المغيب. فبينما كان الأستاذ يشرح درسا حول حضارة بابل ،يتنقل بين السبورة و مكتبه وبين يديه الكتاب المدرسي مطوية بعض صفحاته ؛ومعطفه الأسود الطويل قد عقدت أزراره حتى أخفى كثيرا من ركبتيه ،إذا به يمسك بيده الممسحة الخشبية، ثم في غفلة من الجميع ،يرسلها بكل قوة لتستقر على جبهة أحد الطلاب .أحدثت الضربة جرحا عميقا في ذلك المكان من الرأس .صار الجرح ينزف دما أحمر قان يسيل على اليدين والوجه أودية وأنهارا .اعتقد الجميع وقد أخافهم الموقف أن الأستاذ سيوقف درسه ويسمح لقاسمَ بمسح دمائه .أن يأمره بالخروج لغسل وجهه ويديه الملطختين . ظهر الامر غريبا .تزايدت غرابته سوءا حين أخذ المعلم مسطرة طويلة ثم توجه بها الى الطالب وطفق يضربه على يديه حتى تكسرت ؛بل ازداد العجب هاهنا ، و ازداد مرارة حين أمر المعلم الطالب باحضار

خمسة دراهم في اليوم الموالي ثمنا للمسطرة المكسرة وتسليمها للإدارة ، دون أن ينسى احضار ولي أمره .كان ذلك فقط تأديبا له وموعظة .كانت المسطرة من بين الأدوات التي توزعها ادارة الثانوية على المعلمين للإشتغال بها والاستعانة بها للشرح والتفهيم .كان التلميذ أثناء الشرح منكبا على إثارة الشغب مع أحد الزملاء .لم يكن يتابع درس الأستاذ .حتما رآه الأستاذ وهو في لهوه منغمس، وفي لعبه ماض غير مكترث لصوت المعلم حتى وان ارتفع وجده يفسد على نفسه وعلى زميله متعة التحصيل .صار ذلك الموقف من ذلك الأستاذ الجاد عمله ،مع ذلك الطالب الشارد ذهنه في ذلك المساء من فصل الشتاء ،صار درسا وعبرة تعلمه كل من كان يدرس على يدي هذا الاستاذ النبيل على مر السنوات .

اليوم صار أستاذا له في مستوى أكبر من مستوى الملاحظة .نُسيت تلك الحادثة وتبخرت مع الوقت .لم تعد الكتب تحكي عن الأمم القديمة .أصبح تيمح على موعد مع تاريخ بلاده وتاريخ العالم المعاصر .أصبحت الجغرافيا تتعلق بما في وطنه

وفي بلدان العالم حيث الخرائط والصور متوفرة .أصبح "سي عمارة "محبوبا لديه .يجد يكد يجتهد حبا في ارضائه .كان خلال حصته خفيف الظل ودودا .يبدو عليه الفرح الكتوم إن لمس نشاطا من تلاميذه. ما من وسيلة تدفع بطلابه قدما الا اخذ بها ووظفها. لأول مرة مع هذا الأستاذ رأى تيمح الشرائح المصورة .في ذلك الصباح المشرقة أنواره،طلب الأستاذ من تلاميذه اسدال الستائر على النوافذ حتى يعم الظلام الفصل .لم يكن تيمح يعرف ما يراد من ذلك الاجراء المفاجئ.بعد قليل من ذلك ،احضر سي عمارة آلة بها عدسة يخرج منها ضوء كما هو الشأن في سينما العام وسينما فجيج .بعد كلمة توضيحية حول النشاط الرعوي بجبال الاطلس والريف ،أخذت الصور تخرج من ذلك الجهاز على شكل شرائح .صور غير متحركة .كان بها ماعز يتسلق أشجارا .صارت الشرائح تتوالى الأستاذ لا يكف عن الشرح .اضيئت القاعة من جديد .أمر الأستاذ الطلاب بالاجتهاد في استخراج ملخص لذلك الدرس الفريد .علم تيمح أنه يدخل مع أساتذته الأفذاذ عوالم كان يجهلها

تماما .يتقدم معهم رويدا رويدا نحو عالم المعرفة الواسع والوعي بمحيطه رغم كون محيط وعيه الواقعي كان ضيقا للغاية .

"كان الجوع ينخر أجساد نزلاء الداخلية بدار الطالب بفجيج .كانت الوجبات ثلاثا .فطور هزيل قبل الذهاب الى الثانوية ،قهوة في كأس زجاجي كبير مع قطعة خبز """"بولانجي"" يتيمة لا دسم فيها .وجبة غذاء من عدس أو حمص أو فاصولياء بلا طعم على صحن صغير من زجاج أيضا .تصحبه ملعقة من الحجم الكبير ثقيل وزنها كأنها مطرقة في يد بناء تساعد على التهام ذلك الطعام بسرعة . قطعة خبز الكومير أوفى قليلا من تلك التي قدمت في الصباح وزنا وحجما.عند المساء ،حين تحل السابعة ليلا ،يكون الطلاب على موعد مع صحن حساء """"شربة أو حريرة """"تتراقص فيها حبات حمص ربما من بقايا وجبة الغذاء السابقة ؛ترافقها والبرد يقرص الأنوف قطعة خبز صغيرة لا تسمن ولا تغني من الجوع .كانت الوجبات لا تفي بالشبع وما كانت تقدم الا بعد عناء في الدرس وطول

انتظار .عجزت أسر هؤلاء المساكين -الا القليل منها- أن تمدهم بالمال الكافي حتى يتدبروا أمورهم فيشتروا ما يسدون به جوعهم قبل الوجبات .انتشر القمل جحافل في رؤوس النزلاء. يمشي على الرقاب أسرابا .تعرف ذلك بسمات على أجسادهم .""حكة على الرأس وفي الجلد لا تنقطع..- تخرج الواحدة من القملات بلا استحياء تمشي الهوينى متبخترة تطل من هنا أو من هناك من الجسم المنهك الممتلئ أوساخا .لا حمام في الدار بماء دافئ فيغتسل فيه الطلاب . يقصدون الساقية القريبة فينظفوا ملابسهم من حين لأخر وعطلة آخر الأسبوع .كانوا يتنمرون ممن يجدون به قملا .يعيرونه بأقدح الألفاظ .كلهم كانوا مصابين به كأنه وباء صامت نزل بهم وما وجدوا له ترياقا .

ظهرت عليهم وحالهم مع القمل لا تسر طباع ما كانت محمودة .تعلموها من واقع تلك الحال ،و مع واقع الجوع .والحرمان . في ذات مساء ،استعد الكثير من الطلاب الى مغادرة الدار واليوم أحد .بعضهم فضل التجوال بلا هدف في دروب المدينة بعضهم الآخر آثر أن يحضر مباراة في.

كرة القد بملعب فجيج الكبير في حي بغداد
.فرغت الدار تماما من نزلائها ,أصبح
الوقت مناسبا لارتكاب بعض السرقات
،سرقة ما ادخره بعض الطلاب من طعام
واخفوه في حقائبهم .كانوا ثلاثة أصدقاء
,جمعهم الجوار في السرير ،جمعهم ما
يتقاسمونه من ألم الحرمان ،من ألم الفقر
.لكن فرقهم في ذلك اليوم شدة تأثير الجوع
فيهم .فرقهم مساء ذلك اليوم رغبة بعضهم
في المكر بصاحبه .باعد بينهم يومها سوء
النية المبيتة للغدر بمن يثق بهم جراء ألم
الجوع في بطونهم .اتفق الثلاثة أن
يحضروا المباراة وفي حقيبة مصطفى من
الطعام ما يغري وتشتهيه كل نفس جائعة
.لحم وبطاطس مسلوقة وفواكه وخبر
أعدته أمه باتقان شديد رحمة بابنها مما
كان فيه .انطلق مصطفى يطوى الشارع
الطويل الى بغداد حيث يرسو ملعب الكرة
.تعاهد و الرفيقين المخادعين على الملاقاة
هناك بعد أن ينهيا أمورا تظاهرا أمامه
بأهميتها واستعجالها بالنسبة لهما .كان
مصطفى هناك في الملعب يشاهد اللاعبين
وهم يركضون ،يضرب الكرة هذا بعد أن
انتزعها من قدم ذاك .كان مصطفى منتش

يصفق لفريق مدينته بحرارة .ينتظر بشوق أن يجد من يساعده تشجيعا للاعبين تصفيقا وصفيرا وصراخا .لم يدرك أن رفيقيه لم يلحقا به .انشغل بتشجيع فريق بلدته بوعرفة كل الانشغال .هناك في الداخلية والوقت يشير الى الرابعة مساء ، كان الاثنان يلتهمان ما في الحقيبة من زاد بنهم شديد .ينتشون بالطعم اللذيذ .فرحيْن بمكرهما وغدرهما .يضحكان حتى الأذنين شماتة بصاحبهما المغفل .انتهت المباراة .نظر مصطفى الى اليمين والى اليسار، كان وحيدا في ذلك المكان .لقد تخلف عنه صاحبيه .قطع تلك المسافة من بغداد الى الداخلية لا يشغل فكره سوى ما قدمه اللاعبون من لقطات رائعة في فن الكرة .كان سعيدا جدا بما رآى. حين كان الليل ، فتح مصطفى حقيبته يريد استخراج ما بها من طعام والظلام يخفي كل شيء في غرفة النوم. وضع يده في كل ناحية من الحقيبة يبحث ،كانت صدمته كبيرة لما لم يجد ما يستخرجه .في جنح الظلام ، صار مصطفى يسب ويشتم السارقين .كان صوته مرتفعا أسمع جميع من بالغرفة من نيام .بات السارقان يضحكان تحت الغطاء

متأسفين لما حدث لصاحبهما .كانا يشتمان مع الشاتمين ويسبان السراق مع من كانوا يسبون .في اليوم الموالي ، أخبرهم بما حدث ،فكان لومهم عليه شديدا .زعموا أن نيته كانت سيئة تجاههم .كيف لا، وهو الذي لم يخبرهم بوجود ما كان في حقيبة وما أخفاه عنهم من دسم الطعام وجميل الفاكهة فينتبهوا لمن يرغب في سرقته .لعن الله الجوع الذي كاد يفرق بين الأصدقاء في مكان كان كل واحد منهم فيه أحوج الى الآخر، مواساة ومؤانسة .